

## ماذا تريد دمشق من بكرى؟

### بقلم الصحفي ادمون صعب

النهار ١٧/١١/٢٠٠٠

"نواة الجيش المعني كانت مؤلفة من عنصرين أساسيين الدرزي والماروني، يضاف اليهما بعض شيعيي الجنوب والبقاع. وكان عدد الدروز اول الامر اوفر من عدد الموارنة. ولكن بعد نكبتهم الكبرى على يد ابراهيم باشا اصبح اتكال الامير، في الدرجة الأولى، على الموارنة. وهو كان أضاف الى جيشه فرقة من الملكيين، أي الروم. ولما رأى المسلمون ان الجيش العثماني يهاجم فخر الدين تخلوا عنه. وهكذا فعل الاروام. وأغلب الدروز لما رأوا اميرهم منكسراً خضعوا لباشا دمشق، ولم يبق معه سوى أبو نادر القائد العام، الشهم. فهو ثبت محارباً حتى سقط آخر رجل من رجاله قتيلاً أو جريحاً".

مع من "فخر الدين امير الدروز" لفوستنفلد في ١٨٨٦/٢/٦

اقترب ذكرى الاستقلال في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، يأخذ الجدل القائم منذ مدة حول الوجود السوري في لبنان بُعدة الحقيقي، أي الصراع من أجل استعادة القرار الحر الذي انتزعه اللبنانيون من الفرنسيين عام ١٩٤٣، وكانت آخر مراحل الغاء المواد الدستورية المتعلقة بالانتداب من جانب واحد، أي لبنان، مما ادى الى اعتقال حكومته الشرعية وسجن اركانها في راشيا وحل مجلس النواب وتعليق الدستور. الا ان وحدة اللبنانيين التي تجلّت في أروع مظاهرها، اضطرت السلطات الفرنسية الى الرجوع عن قراراتها الجائرة واطلاق اركان الدولة واعادتهم أحراراً الى بيروت لتنتقل معهم فرحة الاستقلال وزغرداته.

واذ يتطلع اللبنانيون اليوم الى حالهم، وهم على أبواب هذه الذكرى المهمة في حياتهم، يدركون المعنى الكبير لوحدة الشعب في مواجهة أكبر الدول وأقواها. لذلك هم لا يستغربون ان يتحوّل الصراع حول الوجود السوري في لبنان، رهاناً على تقسيم اللبنانيين فريقاً مؤيداً للوجود السوري "حتى العظم"، وآخر معارضاً له. وهو "الوجود" الذي كان مبرره اساساً منع تقسيم لبنان وانتهاء الاقتتال بين اللبنانيين ومساعدتهم على اعادة بناء مؤسساتهم وتوحيدهم مجدداً من أجل تحرير الجنوب والبقاع الغربي من الاحتلال الاسرائيلي، واستعادة موقعهم الاقليمي والدولي، بعدما كان شعبهم تشرذم وتمذهب، وبلدهم تحول ساحة لـ"صراع آخرين" على أرضه. وقد ذكرنا الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان قبل نحو اسبوعين بإمكان تجدد هذا الخطر، اذا لم ييسط لبنان سلطته "الفعلية" على المناطق المحررة في الجنوب.

ودمشق التي أمضى جيشها في ظهر انينا قرابة ربع قرن ساعدتنا في كل شيء تقريباً، الا في الشأن الأساسي والمهم في حياة اللبنانيين، ونعني توحدهم وتصالحهم من أجل تقوية قدرتهم على استعادة عافيتهم الوطنية، من جهة، وجبه الخارج بطموحاته واطماعه، فضلاً عن أخطاره. وربما كان السر الكامن وراء استنكاف دمشق عن مساعدة اللبنانيين على التقارب والتصالح، وحتى التلاحم مجدداً، هو خوفها من ان يرد اللبنانيون عليها، متى تعافوا واستعادوا وحدتهم، مطالبين باسترجاع قرارهم الحر المعبر بأشكاله المختلفة عن سيادتهم واستقلالهم. لذلك باتت قوة دمشق بمواجهة الدعوات التي انطلقت أخيراً مطالبة باعادة النظر في انتشار جيشها في لبنان في انقسام اللبنانيين حول وجودها العسكري في لبنان، ووضعها فريقاً مؤيداً لها من كل طائفة، في مواجهة كل فريق مطالب باعادة النظر في هذا الوجود ووضع حد لتدخلها في الشؤون الداخلية للبنانيين.

وقد أقحم رئيس الدولة في هذه المواجهة ليبدو كلامه كأنه رد على رأس الطائفة التي ينتمي اليها. وبدل التهويل في موضوع الوجود السوري والتلويح بـ"العصا الغليظة" لكل من يسير في هذا الاتجاه والتسبب في انقسام جديد بين اللبنانيين، كان الاجدى لسوريا ولبنان معاً، وخصوصاً ان الرئيس السوري الجديد الدكتور بشار الاسد أكد ان الموضوع هو من اختصاص السلطات المختصة في الدولتين اللبنانية والسورية - كان الاجدى ان تعلن الدولتان ان الموضوع سيكون على جدول أعمال قمة قريبة بين الرئيسين بشار الاسد واميل لحود، من اجل وضع حد للخرق الآخذ في الاتساع بسبب هذا الموضوع في النسيج اللبناني الى حد اثاره جو عدائي غير مستحب في الجامعات حيال سوريا.

ولا يفيد سوريا في شيء تجيش جماعات سياسية وطائفية تابعة لها او متعاطفة معها للرد على البطريرك الماروني ومجلس المطارنة والسياسيين الآخرين، المسيحيين والمسلمين على السواء، في وقت يتعرض لبنان لخطر مباشرة من العدو الاسرائيلي بحراً وبراً وجواً، ويحتاج لمواجهة الى وحدة أبنائه وتضامنهم. وكذلك في وقت "يمنع" لبنان من ارسال جيشه الى الجنوب من اجل ما وصفه بيان المطارنة بـ"الامساك بالارض" مع كل الايحاءات التي تستحضرها العبارة وفي مقدمها الخوف على الوطن ان يضيع ويذهب ضحية الاطماع الاقليمية التي لا تقيم وزناً للحق ولا للعدل ولا للكرامة الانسانية.

ويعزز خوف اللبنانيين على وطنهم، وخصوصاً في الجنوب، حيث يشعر الناس "انهم دون حماية يؤمنها لهم جيش هو لهم"، على ما ورد على لسان البطريرك الماروني مار نصرالله بطرس صفير في افتتاح اعمال مجلس البطاركة والاساقفة الكاثوليك الاثنتين الماضي - يعزز خوفهم القلق الذي تبديه الامم المتحدة على الوضع الجنوبي وما يشكله غياب الجيش على الامن في المنطقة. وهم يستغربون تجاهل المسؤولين الكبار للتحذيرات الدولية في شأن الوضع الجنوبي، مما يذكر بالمواقف السلبية من القرار ٤٢٥ الذي بدأ

كأنه نُفذ رغم ارادة السلطات اللبنانية التي وُجد من طلب منها ان تبقي الجبهة الجنوبية مفتوحة حتى يتحقق السلام في الجولان وتجرّد الامم المتحدة المخيمات من سلاحها، اذا تعذرت اعادة اللاجئين فيها الى ديارهم في وقت قريب! وزادت قلق اللبنانيين طريقة تناول بعض الاطراف لموضوع الجيش ودوره في حفظ الارض والدفاع عن السيادة، من طريق الايحاء انه غير جاهز وانه كان "منحرفاً" قبل العام ١٩٩٠، على ما ورد على لسان النائب البعثي عاصم قانصوه يوم الاحد الماضي، وقد "صوب مسيره على يد الجيش السوري بقيادة العماد اميل لحود"! ان هذا التفتيت والاضعاف لوحدة اللبنانيين هما ما يخيف هذه الايام، اكثر من التهديدات الاسرائيلية للبنان وسوريا. بل هو البديل من "الانتقام" الاسرائيلي بعينه - اذا كان هناك من انتقام - للطريقة التي اندحر بها جيش العدو من لبنان. ورب سائل: لماذا يصر البطريرك الماروني على "محاكمة الوجود السوري"، على ما قال قانصوه، وهو المطالب بـ"اخراج العلاقة بين لبنان وسوريا من حال الضبابية الى حال الوضوح باقامة علاقات دبلوماسية بينهما صريحة شأن كل الدول ذات السيادة والاستقلال والقرار الحر"، داعياً الى "اقامة علاقات صداقة وتعاون وتنسيق صحيح لخير لبنان وسوريا"؟

فأين المحاكمة هنا؟ ومن هو القاضي؟

الواقع ان الجواب عن السؤال، هو جواب تاريخي يتعلق بدور البطريركية المارونية في نيل استقلال لبنان والدفاع عن سيادته وقراره الحر.

فقد تتادى اللبنانيون، مسيحيين ومسلمين، الى المطالبة بـ"تثبيت استقلال لبنان"، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية وتجويع اللبنانيين وهلاك ثلثهم تقريباً على يد التحالف التركي - الالمانى. وقد بعثوا بوفد مشترك الى مؤتمر السلام في باريس برئاسة البطريرك الماروني الياس بطرس الحويك الذي قدم مذكرة في ٢٥/١٠/١٩١٩ باسم الوفد اللبناني شدد فيها على ان استقلال لبنان "الذي كان اعلنه في ٢٠ ايار ١٩١٩ الشعب والحكومة اللبنانيان اللذان طالبا باستعادة الاراضي التي سلختها عنه تركيا، هذا الاستقلال كما تبناه اللبنانيون بالاجماع، لم يعد بكل بساطة الاستقلال الذي نتج من انهيار الامبراطورية العثمانية، بل هو بات خصوصاً الاستقلال الناجز حيال اي دولة عربية كانت سابقاً داخل ما كان يسمى سوريا".

واضاف الحويك: "من خلال مفهوم اللغة العربية مغاير للواقع حاولوا الخلط بين لبنان وسوريا. وهذا خطأ".

وذكر "ان تركيا التي لم يتراجع لبنان امام قمعها، ولم يستسلم لآزاء المجازر التي تعرض لها شعبه ولا حيال تجويعه، قد حازرت تغيير مفهوم استقلال لبنان ولم تسع في اي وقت الى تذويبه في اي من الولايات المجاورة".

وشدد على انه "في ٢٠ ايار ١٩١٩ البرلمان اللبناني المنتخب من الشعب والخاضع لارادة الجامعة للسكان، اعلن استقلال لبنان وبعث بوفده هذا الى المؤتمر (...). من اجل تكريس الحق في الاستقلال الذي اهرق من اجله الكثير من الدم اللبناني".  
وقال اخيراً: "ان لبنان الموضوع تحت الانتداب الدولي منذ ٦٠ سنة (عام ١٩١٩) يستحق اليوم ان يصبح دولة ذات سيادة".

ان هذا الدور للبطيريك الحويك المكمل للدور التاريخي للبطيركية المارونية في المحافظة على لبنان لجميع ابنائه مسيحيين ومسلمين، مستقلاً، سيداً، حرّاً في قراره، كان مبعث قلق البطيريك الماروني مار نصرالله بطرس صفير على السيادة كما على المصير في الصراع على الارض والمياه والنفوذ في المنطقة، بين اسرائيل التي قامت على البطش والارهاب معتمدة على وعد من دولة عظمى، ولا تقيم وزناً للحق ولا للعدالة، وسوريا التي أدى وجود جيشها في لبنان طوال ربع قرن الى إثارة قلق حول الاستقلال والسيادة والقرار الحر لدى مجموعات كبيرة من اللبنانيين اعتبرت ان اندحار الجيش الاسرائيلي من لبنان سيربحه، فاذا به يغرق في نزاع مع سوريا حول شرعية نفوذها في لبنان.

ولقد ادرك الرئيس الراحل حافظ الاسد الدور المركزي للبطيركية المارونية في الحياة السياسية اللبنانية، معتبراً بكركي صرحاً جامعاً لا يرقى الشك الى وطنية سيده ولا الى صدقيته، لذلك هو سأل موفداً من الرئيس سليمان فرنجيه عام ١٩٧٦ "ماذا يريد البطيريك الماروني من سوريا وحافظ الاسد؟" وقبل ان يجيب الموفد - وكان الرئيس فرنجيه غادر قصر بعيدا تحت وطأة القصف الذي تعرض له، وانتقل الى بلدية الزوق ثم الى منزل شقيق صهره الدكتور لوسيان دحداح في الكفور - تناول الرئيس السوري ورقة بيضاء وقال للموفد: "خذ هذه الورقة، واطلب من البطيريك ان يدون عليها المطالب التي يريدونها من سوريا، شرط ان يترك لنا سطرأ واحداً في نهايتها يتعهد فيه الا يتعامل الموارنة مع اسرائيل".

ولسنا ندري ماذا حصل بعد ذلك، غير دخول الجيش السوري الى لبنان مطلع حزيران.  
ان الموفد ما زال حياً يُرزق وهو نفسه صاحب منزل الكفور، ونظنه يرحب بمثل هذه المهمة مع ابن صديقه ورفيق صفه في اللاذقية الدكتور بشار الاسد، وخصوصاً ان التعامل مع اسرائيل اصبح من الماضي، وسيد بكركي الحالي من ألد اعداء الدولة العبرية.

فهلا دعا الدكتور الاسد صديق والده ونسيب آل فرنجيه حلفاءه الى مهمة تخدم سوريا ولبنان وترضي روح والده في عليائها؟